الفصل الأول

الحداثة ومستقبل المجتمع في مصر

استكشاف لآفاق التقدم

أ.د.إنشراح محمد دسوقي(*)

قبل البدء في البحث عن نموذج ملائم للتحديث لا بد لنا من معرفة أسباب التخلف وشرحها وتحليلها، ووضع الأساليب والوسائل المناسبة للقضاء عليها، ومن ثم تكون هذه هي الإرهاصات الأولى نحو البحث عن نموذج مناسب للتحديث.

ولا شك أن دول الجنوب، ومنها مصرنا العزيزة، تعاني تخلفًا تقنيًّا وماديًّا قياسًا بالدول المتقدمة في الشمال، وقد عانت دول الجنوب لسنوات طوال من ويلات الاستعمار الغربي الذي أجهض محاولاتها المستمرة للتقدم والتحديث، وبعد كفاح دام سنوات عجاف وطويلة، استطاعت دول الجنوب أن تنال استقلالها، ومن ثم بدأت عدة محاولات لتلحق بركب التقدم والتحديث، ووجدت هذه الدول نفسها في مفترق الطرق وأمام مجموعة من الاجتهادات والخيارات لتخرج من مأزق التخلف الذي وجدت نفسها فيه، ليس هذا فقط، بل كانت كل دولة على حدة مرتبطة بأشكال متباينة من العلاقات سواء بدول الشمال المتقدم أو ببعض دول الجنوب المتخلف، ومن ثم بدأ من قامو بالتحرير في كل بلد بتبني أيديولوجيات بلدان الشمال والتي كانوا قد تأثروا بها؛ مثل اتباع الفكر الاشتراكي في تحديث بلدانهم على نحو ما وجد في الاتحاد السوفيتي، ودول أخرى تبنت الفكر الرأسمالي أسوة بما هو حادث في دول الشمال، وكندا، وبالرغم من الاختلاف الجذري بين الأيديولوجيتين إلا أن دول الجنوب لم تستطع حتى الآن تحقيق ما تصبو إليه من تقدم وتحديث؛ إما لأسباب داخلية متمثلة بشكل واضح في: افتقاد الخبرة، وسوء التخطيط، وسوء الإدارة، والبيروقراطية، والطموح الزائد لدى بعض القادة، ونقص الحريات، وعدم

(*) أستاذ مساعد غير متفرغ، قسم علم النفس، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

وجود أيديولوجية واضحة للتقدم، أو لأسباب خارجية واضحة حتى الآن وضوح الشمس، بما يسمى بنظرية المؤامرة. وأنا شخصيًا أرى أن العاملين السابقين وراء حالة التخلف التي تعاني منها دول الجنوب ـ ومنها مصرنا العزيزة ـ ورأيي الشخصي في هذا الصدد، أن الاستعمار السابق والحالي واللاحق مثله مثل الفيروس لا يصيب إلا الدول الضعيفة والمتخلفة، ولم تفطن الدول العربية حتى الآن إلى أن تخلفها وتأخرها يكمنان في تبعيتها الاقتصادية للمستعمرين القدامى والجدد على السواء، الذين أدمنوا عملية الاستعمار بأشكاله المختلفة في نهب ثروات الشعوب، والإثراء على حساب قوت أهل الجنوب، وبث روح الهزيمة والدونية فيهم، والتعالي عليهم والسيطرة على مجريات أمورهم، متجاهلين في ذلك كل قيم الحضارة بمعناها الإنساني.

ويتمثل ذلك في أن الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية الدولة العظمى يقوم الآن بإسقاط عدوانيته على الكثير من دول الجنوب وخاصة على المسلمين، فيتهمهم بالإرهاب ظلمًا وعدوانًا، ولكن المتتبع لحركة التاريخ لا ينكر أبدًا أن مَن اضطهد اليهود على مر العصور هو الغرب في كل من: أسبانيا وألمانيا وإنجلترا وروسيا وغيرها، كما أن الغرب في أوروبا هو الذي شن الحروب الصليبية على دول الجنوب، والذي يعرفه الجميع عن المسيحية أن سيدنا عيسى عليه السلام قال مقولته الشهيرة (أحبوا أعداءكم)، (وأحسنوا إلى مبغضكم)، (مَن لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخرَ أيضًا). "إنجيل متى، ص٥" أين هذا الكلام الطيب المعبر عن قمة الإنسانية، من الحروب الصليبية ومن إشعال حربين عالميتين أتت على الأخضر واليابس، وقبلها شنت الدول الأوروبية حروبًا طاحنة وضروس فيما بينها، كما يسطر التاريخ كيف أباد البيض النازحون من أوروبا ٦٠ مليونًا من الهنود الحمر أصحاب الأرض الأصليين، وكيف أذلوا الزنوج وأهانوهم بعد أن ساعدوهم في بناء حضاراته المادية، وما فتئوا يفعلون ذلك مع المعتقلين والمسجونين، سواء في سجن أبو غريب بالعراق أو في سجن جوانتاناموا بكوبا وحربهم على فيتنام وقتلهم أكثر من ٦ ملايين فيتنامي، ولكن لا أبرئ أنفسنا وقادتنا في العالم العربي من أنهم أعطوا الغرب الفرص كاملة ليمارسوا سيطرتهم عليها وتحكمهم فينا؛ إما عن طريق التبعية الكاملة، أو عن طريق الرفض الكامل، ولم يحسن إلقادة في دول الجنوب الاستقلال عن وبناء الذات وتحمل ضعف الموارد إلى حين الاعتماد على النفس، والثقة في أن لدينا عقولاً تستطيع أن تبتكر

وسائل وأساليب جد هامة في التقدم والارتقاء والتميز في كل المجالات الاقتصادية والعلمية والسياسية والاجتماعية، ولن يتم هذا إلا بسواعد الوطنيين المخلصين من ذوي الخبرة في المجالات السابق ذكرها، مع الأخذ ببعض الأساليب والوسائل التي اتبعها الآخرون محتفظين في الوقت ذاته بهويتنا وثقافتنا، والدول المتقدمة في الشمال لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد أن نالت استقلالها، وفَعَّلت إمكاناتها واعتمدت على سواعد وعقول أبنائها وعلى مواردها، مع الأخذ في الاعتبار أن ثقافتنا بها الكثير من الجوانب الإيجابية، والتي إذا ما فُعِّلت فسوف تؤتي ثمارها بإذن الله.

فالعمل على تحديث الأوطان يجب أن يعتمد على أهل الخبرة لا أهل الثقة؛ ليختاروا بين البدائل من آليات ووسائل التحديث. ومن الملاحظ أن المفاهيم المتداولة الآن في العالم مثل: الديمقراطية، والحرية، وحقوق الإنسان، والعولمة، . . . وغيرها هي من نتاج الحضارة الغربية ومن نبت عقولهم، ونحن لسنا أقل منهم ذكاءً ولكن تنقصنا الجرأة لابتكار وسائل وأساليب ومفاهيم خاصة بنا، نفخر بها ونفعِّلها على نحو ما فعلت ماليزيا بقيادة الدكتور مهاتير محمد الذي رأى أن الاستقلال الاقتصادي وعدم الاقتراض من البنك الدولي أو من الدول الغنية في الشمال هو الطريقة المناسبة لتحديث ماليزيا وتقدمها، التي تعد من كبريات الدول الإسلامية.

هذا إذن ليس بالأمر الصعب إذا ما خلصت النوايا ووثقنا بأنفسنا وقدراتنا وإمكاناتنا، واتبعنا الأسلوب العلمي في التقدم والتحديث، عندئذ نصبح فاعلين في العالم، ويكون لنا دور في بناء الحضارة الإنسانية.

كما أن تحقيق الوحدة الاقتصادية بين الدول العربية في الجنوب لن يتأتى إلا بالحث الدائم على إقامة السوق العربية المشتركة التي تُعَدّ النواة الأولى لاستقلالنا الاقتصادي، والذي بدوره يساعدنا في تحقيق التقدم والحداثة.

ونأتي الآن لطرح النموذج الملائم للتحديث وهو في رأي النظام الرأسمالي الموجه بديلاً عن الرأسمالية المتوحشة التي وضعت الحداثة الغربية في مأزق الآن؛ لأن التأكيد على العقل والعلمانية التي تدعو إلى فصل الدين عن الدولة أبعد الحداثة الغربية عن الإنسانية.

ونأتي الآن إلى ختام هذه الورقة والتي سوف أنهيها بهذه العبارة للمفكر والكاتب

الأستاذ "فهمي هويدي" المنشورة بأهرام ٢٨ مارس ٢٠٠٦ بمناسبة انعقاد القمة العربية بالخرطوم، والتي جاء فيها:

"كدنا ننسى أن للعرب قمة بعد ما أصبحت الوصاية الدولية حقيقة شاخصة في المنطقة، تمددت في الفراغ الذي أحدثه الغياب العربي عن العديد من ملفات المصير، حتى بدا وكأن "الأغيار" هم اللاعبون في ساحتنا، ونحن إمّا متفرجون أو ملعوب بهم".

إذن.. إن لم نسارع في الأخذ بالنموذج الملائم للتحديث، فسوف نستمر مفعولاً بنا غير فاعلين لا قدّر الله، ولكن بالعزم والإرادة والتصميم والعمل الجادّ، وإعطاء المبادرة لأهل الخبرة، سوف نلحق بركب التحديث، ونبني حضارتنا العربية الإنسانية، وتصبح علاقتنا بدول الشمال علاقة ندّيّة تتميز بالاحترام المتبادل والعلاقات الطبيعية السوية إن شاء الله، كما يجب أن تكون.

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد...

obeikandl.com